

٩ - الرواية المسرحية

في التاريخ والنص

بقلم أحمد حسن الزيات

المهارة La comédie

تعريفها : المهارة تمثيل حدث منتزع من الحياة العامة يمث اللهو ويشير الضحك . وموضوعها الجهة الوضيعة من طبائع الناس وعادات المجتمع ونقائص الحياة . أماجهة الانسان الرفيعة وتكبات الدهر الفظيعة . وجرأهم الهوى السفيه فموضوع المأساة . ويحيل إلى أن الفرق بين المهارة والمأساة لا يزال غير واضح ولا معدد ، فيحسن هنا أن تفصل القول فيه . فالمهارة تختلف عن المأساة في البدا والواسطة والغاية . فبدأ المأساة حساسة الانسان . وشعوره ، وواسطتها التأثير ، وغايتها الرهبة من الهوى المضل ، والرعب من الجرم الفظيع ، والرغبة في الخلق الكريم . وأما المهارة فبدأها خباثة الانسان وضعفه ، وواسطتها السخرية والضحك ، بأن تنظر إلى عيوب الناس نظرة الضاحك الساخر مادامت غير مؤلمة فتشير الرحمة ، ولا محققة فتشير البغض . ولا مخطرة فتشير الفزع . ثم تصور هذه النقائص بمهارة ودقة ، وتستهين على تقوية هذه الصورة بالفارقات والمفاجآت لتكون مثاراً للاستهزاء والضحك . ولا ريب أنه كان أجدر بنا وأنفع لنا أن نقابل عيوب الناس بالثناء الأخوى والنظر الفلسفي بدلاً من هذه الضحكة المهازئة ، ولكمهم وجدوا أن أقرب الطرق وأجمع الوسائل أن يستخدموا فساد بعض الناس في إصلاح فساد الآخرين ، كما تستخدم ذبابة الحجر من الماس في مقل الماس نفسه . وإصلاح السيوب بالعيوب هو غاية المهارة . ومن الناس من يفرق بين المهارة والمأساة بكيفية الأشخاص وكية المواطنين ، فيقولون إن أشخاص المأساة من طبقة الخاصة . وأشخاص المهارة من طبقة العامة ، وإن درجة المواطن في الأولى

قوية وفي الأخرى ضعيفة ، وذلك فرق لا يميز ولا يوضح ، لأن الآلهة والملوك قد يتخذون في بعض الأحيان أذاحيك كما ترى في رواية (امفتريون) Amphitryon لمولير ، ولأن اليأس القاتل الذي استولى على بحيل مولير حينما فقد خزانة ماله ، لا يقل في درجته وشدة عن يأس فيلوكتيت^(١) سوفوكليس حينما خطفوا منه سهام هرقل .

إن النوازل القادحة والمهالك الجائحة والهواطف الخارقة سرايا المأساة ودلائلها ، ولكن المنافع الخاصة والأخلاق العامة والسيوب الشائسة كيان المهارة وخصائصها . فالأولى صورة من التاريخ ، والأخرى صورة من المجتمع ، والذيلة لا تدخل في باب المهارة إلا وهي مضحكة محتقرة . فإذا كانت محققة مضرة دخلت في باب المأساة . فمولير جعل المنافق المحتال شخصاً مضحكاً في (رتوف) ، وشكبير جعله شخصاً محزنأفي (جلوستر) ، وذلك بالطبع راجع إلى طبيعة النفاق والخب في الحالين .

سبب الضحك في المهارة : سبب الضحك هو خطأ حقيق أوداعى لا ضرر منه ولا تبعه له . فنحن إنما نضحك إذا لحظنا بين الشيء وبين الواقع اختلافاً لا يكون فيه مضرة لأحد .

فالرجل المفلس الذي يظن نفسه كفوؤاً لأن يعلم الناس جمع الثروة ، والشيخ التهدم الغافى الذي يتصابى في مشيته ، ويتظرف في لهجته ، يبتسان على الضحك ويستوجبان السخرية ، لأنهما يريان الأشياء على غير حقيقتها . والدمامة في ذاتها ليست مضحكة ، وإنما تصبح كذلك إذا ظن الدميم نفسه جيلاً ، أو رجا أن يظنه الناس كذلك . ولهذا السبب نفسه نضحك من اريجون بحيل مولير حين يطبق على خزانته ما يقوله له فالير عن ابنته ، وكذلك نضحك من (سينالك) لارويير حين أخذ نمله وهو يحسبه كتاب القداس ، كما حدث لأحد إخواننا من المعلمين الكهول إذ وضع « دفتر

(١) فيلوكتيت مأساة شهيرة لسوفوكليس ، وعلم على بطل من أبطال طروادة التاهبين . أوصى إليه هرقل عند موته بسهام السمومة . وبينما هو في طريقه إلى طروادة جرحه سهم منها . ونقل الجرح فسطعت منه ریح منتنة لا تئمتل . فبرم به القوم وخلقوه وجده في جزيرة لتوس فلبث فيها عشر سنين . فلما أعلنت الآلهة ان طروادة لا تؤخذ إلا بسهام هرقل عاد إليه أوليس وديوميد يبتسان عنه فيها ، فلما لقيه خطفوا منه السهام وعادا إلى طروادة .

المريض الوهم ، والطائش ، والحضري الشريف لموليير ، والملهية الاجتماعية *La comédie de moeurs* وتؤلف من الهزؤ بمخبال الناس وسخف المجتمع ، وتصوير ما أحدثته العادات السيئة في الأخلاق من تشويه ومسخ ، وذلك في طبقة خاصة وعصر معين . ويجب أن يكون كل شيء فيها مهيناً ليظهر مع غيره عيباً من عيوب الاجتماع . فالحوادث تختار عن قصد لبلوغ هذه الغاية ، والظروف ترتب بدقة لأحداث هذا الأثر ، والفرد يكبر ويعظم حتى يتضمن الجنس بأسره ، والحوار يجري على طريقة تبرز فكرة المؤلف واضحة في كل خطاب وجواب ، كالتحذيرات السخيفات لموليير ، ونصف العالم ، ومسألة النقود ، والأب الميذر ، لاسكندر دوماس الصغير . والملهية الخلقية *La comédie de caractère* وهي تهاجم العيوب والنقائص المسيطرة على الأخلاق في كل زمان ومكان ، وترفعها إلى الأفاذة والامتناع أقوى منها إلى السخر والأضحاك . كالبخيل ، وترتوف ، والتوحش لموليير . وهذا النوع أنفع الأنواع الثلاثة وأقواها وأصعبها . فأما أنه أنفع ، فلأنه يرجع إلى مصادر العيوب وأصولها فيها جما في مبادئها ومناشئها ؛ وأما أنه أقوى فلأنه يقدم إلى الناس المرأة فيخجلهم من صورهم ويضحكهم من أنفسهم ، وأما أنه أصعب فلأنه يطلب من المؤلف دراسة عميقة للأخلاق ، وبصيرة نافذة في الملاحظة ، وخيالاً قوياً ليجمع شتات الملاحظات الكثيرة في نقطة واحدة .

هذه هي أنواع الملهية الثلاثة ، دون أن نعد منها تلك الأنواع التي تعتمد في الأضحاك على النكات اللفظية ، أو على المواقف الخليعة المجونية ، فإنها بضاعة الأذهان الكلية ، والأذواق السقيمة . ولها مع ذلك اسم غير هذا الاسم وموضع غير هذا الموضع . على أن هناك نوعاً رابعاً هو أسمى من تلك الأنواع وأقوى . ذلك هو الملهية المختلطة التي تستوعبها جميعاً . فتجميع إلى هزل المواقف هزل الأخلاق والعادات ، فترى فيها الأشخاص مدفوعين بضعف عقولهم ، أو مرض قلوبهم إلى أن يقفوا مواقف نخزية تعرضهم إلى سخر المشاهدين واحتقارهم . كالوقوف الذي وقفه أرباجون بخيل موليير مع ولده حيناً أقبلًا يتعاملان باليابا دون أن يعرف أحدهما الآخر ، فكانت مقابلة الأب المرابي والابن الميذر من سخريات الحياة وغرائب الأمور .

[البقية في أسهل الصفحة التالية] .

التحضيره في شباك المراض بجانب قطعة بالية من قفة خوص . ولما قضى أمره منها فأخذ (البرش) بدل الدفتر ، ودخل به الفصل فكرر التلاميذ في الضحك من هذا السهو التريب .

على أن حدوث السهو أو الخطأ من إنسان لا يكتفي في حدوث الضحك ، بل لابد أن تلحظ ذلك الخطأ منه ، وبدرك التباين بين فكرته عن الشيء ، وبين حقيقة ذلك الشيء نفسه . فإذا اتفق أن أحد الناس لم يفتن إلى هذا الخطأ فتور ذهنه أو قلة علمه بقي جاداً لا يضحك ولا يتسم . وذلك سبب ما نرى من أن الشيء يضحك بعض الناس ولا يضحك البعض الآخر . ولا يلزم أن يكون الخطأ المضحك حقيقياً ، بل يكفي أن نراه نحن كذلك ، أو يتظاهر المضحك بأنه غلط في شخص أو في شيء . والملازم إذا أراد أن يمزح قائماً يدعي الحماقة والسذاجة وهما مصدر السهو والخطأ . كذلك يجب ألا يكون لهذا الخطأ قيمة معززة ولا نتيجة مشثومة كما ذكرت من قبل ، وإلا أثار الرعب والاشفاق ، بدل أن يثير الجذل والضحك . فيروب حين أخطأت في ولدها فظنته قاتلاً ، وأرادت أن تقتله لم يضحكنا ماتفل ، وإنما ملأ قلوبنا رعباً وخشية ؛ والتكبرون لا يضحكون من أنفسهم إذا أخطأوا ، لأنهم يجدون في هذا الخطأ خدعاً لكبرهم وإهانة لصلفهم فيتألمون .

ومنشأ الخطأ الذي يولد الضحك إما نقص في الخلق ، وإما ضعف في الذكاء ، وإما ظروف خارجة عن شخص الخطيء . والخطأ يستتبع في أكثر الأحوال أقوالاً وأفعالاً تخالف الرعى من العادة أو العرف أو القوانين أو الذوق ؛ وتلك هي السمات التي تحدد لك أخلاق الملهية . ففي ملهية (التوحش) لموليير تجد كل ما يقوله (أليست) ويفعله مناقضاً للعادات الجارية ، لأنه فقد قوة الحكم على الأشياء ، فبالغ في تقدير الفضيلة إلى حد أن يرى فيها أجازة العرف وأمضاء خطورة ليست فيه .

أنواع الملهية : الملهية ثلاثة أنواع : وهي الملهية الاشكالية *La comédie d'intrigue* وتؤلف من الحوادث المضحكة الغريبة التشابكة المعقدة التي تأخذ على المشاهد أنفسه وتملك حواسه ، حتى تنتهي بحل مرغوب غير متوقع . فالحوادث روحها وقوتها . أما وصف العادات ، وتصوير الأخلاق ، ففما في المحل الثاني منها ، كملهية